

عَلَى أَذَى الْخَلْقِ

ابن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

العلم الصحيح
الكتاب الثاني
بفهم السلف الصالح

الخامس عشر: رَبِّمَا كَانَ انتقامُهُ ومقابلته سبباً لزيادة شرِّ خصمه، وقوة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يُوصِّلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر وعفا

المصدر: جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله - تحقيق: عزيز شمس (1/ 168-174)

أحدها: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيئته، فالعباد آلة، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترخ من الهَمِّ والغَمِّ.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى:

﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

[الشورى: ٣٠]. فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه [بسببها]، عن ذمهم ولومهم والوقية فيهم. وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه - ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار - فاعلم أن مصيبته مُصِيبَةٌ حَقِيقَةٌ، وإذا تاب واستغفر وقال: (هذا بذنوبي)، صارت في حقه نعمة.

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كلمة من جواهر الكلام: «لا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ عَبْدٌ إِلَّا ذَنْبَهُ». ورؤي عنه وعن غيره: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنبٍ، ولا رُفِعَ إلا بتوبة».

الثالث: أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر، كما قال

تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

[الشورى: 40]. ولما كان الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالمٌ يأخذ فوق حقه، ومقتصدٌ يأخذ بقدر حقه، ومُحْسِنٌ يعفو ويترك حقه، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: "أَلَا لِيَقُمْ مَنْ وَجِبَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" [السلسلة الضعيفة: 1277]، فلا يقم إلا من عفا وأصلح. وإذا شهد مع ذلك فوت الأجر بالانتقام والاستيفاء، سهّل عليه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش والغِلِّ وطلب الانتقام وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته - عاجلاً وآجلاً - على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفة، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]، فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال مَنْ أَخَذَ مِنْهُ دِرْهَمٌ فَعُوْضَ عَلَيْهِ أَلُوفًا مِنَ الدَّنَانِيرِ، فحينئذ يفرح بما منَّ الله عليه أعظم فرحاً يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلاً يجده في نفسه، فإذا عفا أعزه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق عليه السلام حيث يقول: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً» [رواه مسلم: 2588]. فالعز الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عزٌ في الظاهر، وهو يورث في الباطن ذلاً، والعفو ذلٌ في الباطن، وهو يورث العز باطناً وظاهراً.

السادس - وهي من أعظم الفوائد -: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالمٌ مُدْنِبٌ، وأن مَنْ عَفَا عَنِ النَّاسِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ غَفَرَ لَهُمْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ. فإذا شهد أن عفوهم عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويحسن إليه على ذنوبه، ويسهّل عليه عفوهم وصبره، ويكفي العاقل هذه الفائدة.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرّق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استرداؤه، ولعل هذا

أعظم عليه من المصيبة التي نالت من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصلحته التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه، وانتصاره لها، فإن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أن آذاه أذى الله، ويتعلّق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرها، وأبعدها من كل خلق مذموم، وأحقها بكل خلق جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يُوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أُوذِيَ على ما فعله الله، أو على ما أمر به من طاعته ونهي عنه من معصيته، وجب عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أُوذِيَ في الله فأجره على الله. ولهذا لما كان المُجاهدون في سبيل الله ذهب دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله تكلّفه كان على الله خلفه.

وإن كان قد أُوذِيَ على مُصِيبَةٍ فليرجع باللوم على نفسه، ويكون في لومه لها شغلٌ عن لومه لمن آذاه.

وإن كان قد أُوذِيَ على حظٍّ فليوطن نفسه على الصبر، فإن نيل الحظوظ دونه أمرٌ أمرٌ من الصبر، فمن لم يصبر على حرِّ الهَوَاجِرِ والأمطارِ والثُلُوجِ ومَشَقَّةِ الأسفارِ ولُصُوصِ الطَّرِيقِ، وإلا فلا حاجة له في المتاجر. وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناس أن مَنْ صدّق في طلب شيء من الأشياء بذل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.